



# الأديب و المفكر الراحل رمضان عبد الرحمن لاوند

أكبر محاولة تمرد  
فاشلة على الثورة الفرنسية

## حتى لا يغلب اليأس علينا ... عند الأمم المتقدمة كما عندنا أكبر محاولة تمرد فاشلة على الثورة الفرنسية

الالتهاب الذي لا يميت الجسد يمنحه القوة في النهاية ويكشف عن قدرته على الصمود ... وكذلك التغيرات العنيفة التي تتلاحق في مجتمع معين والتي لا تقتل هذا المجتمع لا تلبث في النهاية أن تمنحه القوة وتكشف عن قدرته على الصمود ...

لست أدري ما إذا كان الكثيرون من القراء يؤيدون ما أثبتته في الفقرة السابقة . لكنني مع ذلك مؤمن بصحة ما أثبتته . لقد كشفت الحوليات التاريخية عن هذه الظاهرة بكامل أبعادها . إن أي تغير جذري في التوازنات الاجتماعية الاقتصادية الفكرية في أي مجتمع من المجتمعات القديمة أو الحديثة لا بد وان تترتب عليه اضطرابات تتراوح بين حديها الأدنى والأقصى بين الصراح الفكري العنيف وبين الإقتتال الدامي حين لا يؤمن أصحاب الرؤية المستقبلية إلى إكتساب الجولة بصورة حاسمة .

الولايات المتحدة مثلا اضطرت لخوض حرب أهلية ضروس لمدة خمس سنوات تقريباً حين أصبح التغير في المجتمع الأميركي خطراً على التوازنات الداخلية في البلاد ...

الإتحاد السوفياتي لم ينتزع المبادرة من النظام القيصري إلا بعد معارك دامية منذ بدأت رياح التغير تشكل خطراً حقيقياً على التوازنات الداخلية في تلك البلاد الشاسعة ...

والشأن نفسه في بقية بلدان العالم الجديد والقديم كما في بريطانيا العظمى في القرن السابع عشر. وفي فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر وإيطاليا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

\*\*\*\*\*

أما إذا استمرت الاضطرابات لسبب من الأسباب الداخلية والخارجية فهذا يعني أن القوى التي تمثل تيار التغيير لم تستطع أن تنتزع المبادرة بصورة حاسمة من الجماعات المحافظة المنتفعة من إستمرار الواقع القديم . وهذا ينطبق بالطبع وبصورة خاصة على بلاد كثيرة في قطاع العالم الثالث الذي يواجه رواد التغيير مقاومة من المحافظين يستعين أصحابها في حالات كثيرة بقوى خارجية تارة أو يشغلون ضؤولة الوعي في العناصر الداخلية . وقد يجتمع العاملان في وقت واحد معاً .

\*\*\*\*\*

وبلادنا العربية منذ أصبحت رياح التغيير تشكل خطراً على العناصر المحافظة سجلت ولا تزال تسجل صراعات لا تكاد تنقطع في بعض مواطنها ولا سيما بعد ظهور الصهيونية في فلسطين المحتلة وتعاقب حروب محسوبة المقدمات والنتائج ولا سيما تلك التي تشتعل بين التيارات الإجتماعية الاقتصادية السياسية والثقافية في داخل الكثير من هذه البلاد .

\*\*\*\*\*

ولعل الثورة الفرنسية في بعض مراحلها التي بدأت منذ الرابع من يوليو 1789 م أن تكون نموذجاً حياً لظاهرة الثورة والثورة المضادة والتي انتهت أخيراً بظهور نظام جديد لا هو النظام الملكي القديم ولا النظام الجمهوري الجديد بل هو نظام يجمع بين الجانبين حين قفزنا يوليون إلى شدة الحكم وأنشأ نظامه الأمبراطوري.

ومع ذلك فإن عوامل داخلية وخارجية لم تلبث خلال الأعوام التي حكم فيها نابوليون فرنسا أن عادت إلى زلزلة هذا النظام النابوليوني فراحت فرنسا تراوح لنصف قرن تقريباً بين الجمهورية والملكية حتى انتصرت الجمهورية بصورة حاسمة بعد هزيمة نابوليون الثالث أمام بسمارك الألماني في بداية السبعينات.

\*\*\*\*\*

على أن الاضطرابات التي كشفت عنها الحوليات التاريخية للثورة الفرنسية لم تبرز كلها بقوة في سجلات التاريخ الحديث بل كان منها ما تعرض للتعطيم الشديد وفي مقدمتها الثورة المضادة لعناصر من مدينة تولوز وما حولها يطلق على أصحابها إسم " الشوان " .

وقد اخترت هذه الثورة المضادة بالذات لأنها لو لا افتقادها للتنسيق بين أطرافها المتعددة لتغير بسببها وجه التاريخ الفرنسي . ومع ذلك فإن ما دفع كان يجب أن يقع لأن الناس في نهاية القرن الثامن عشر رغم رفضهم لسياسة الثورة الدموية التي قلبت نظام الحكم الملكي كانوا يتوقون إلى تكوين عالم جديد يحررهم من قيود الملكية وقوانينها وعقليتها السائدة .

\*\*\*\*\*

هذه الثورة المضادة التي تم اجهاضها خلال سنوات قليلة اشتعلت نيرانها في ليلة حارة من 5 إلى 6 أغسطس من عام 1799م وبالتقويم الجديد الذي استحدث آنذاك " 18 - 19 ترميدور من العام السابع ".

والغرض من ايراد التفصيلات الخاصة بهذه الثورة المضادة هو أن يدرك الجيل العربي المعاصر الذي عانى ويعاني الكثير من المتاعب بأن اليأس من عودة السلام على صورة عالم جديد هو خطأ بل خطيئة كبيرة . ذلك أن إستمرار الصراع مهما تكن أسبابه ومهما تكن نتائجه المباشرة دليل إستمرار الحياة في صفوف الأمة رغم كل محاولات التجميد التي تبذل للحيلولة دون اسهام العرب في صنع حضارة المستقبل.

\*\*\*\*\*

يقول جاك غودوشو ، أحد أبرز المختصين في دراسة تاريخ الثورة الفرنسية ، والأستاذ في جامعة تولوز، التي انفجر فيها تمرد "الشوان ":

" حتى سكان تولوز يبدو اليوم أنهم يجهلون كل شيء عن تلك الثورة الملكية المضادة ، رغم أهميتها الكبيرة وخطورة النتائج التي كان يمكن أن تترتب عليها ، والتي بدأت نيرانها تشتعل في منطقتهم خلال شهر أغسطس من عام 1799م . يضاف إلى ما سبق أن تعداد الثوار الملكيين كان من الكثرة بحيث يبدو رجال الإدارة ، قادة الثورة الجمهورية ، أضعف من أن يواجهوهم . لكن افتقاد المتمرين للتنسيق من ناحية وشيوع سوء التفاهم بين بعضهم البعض ، وهما خطيئتان كبيرتان . ظهرتتا بصورة مستمرة منذ عام 1793م ، حالا دون حصولهم على أي انتصار حقيقي في ميادين القتال".

## كيف بدأت الثورة المضادة

قلنا : كان ذلك في ليلة 5 - 6 أغسطس من عام 1799 م بينما سكان تولوز غارقون في نومهم خلف الأسوار القديمة لمدينتهم . وبينما كانت أبواب المدينة الخمسة عشرة مغلقة اغلاقاً محكماً ويقوم على حراستها جنود من الحرس الوطني.

أما خارج المدينة ، وفي الوقت الذي بدأ فيه الظلام ينتشر ، فقد أخذت جماعات يتراوح عددها بين خمسة آلاف وعشرة آلاف تتجمع في صمت . وأفرادها مسلحون بالفؤوس والمناجل والعصي ذات الأطراف الحديدية ، وبدرجة أقل ، ببنادق الصيد وبعض المسدسات.

\*\*\*\*\*

وفي تمام الساعة الحادية عشرة من ذلك المساء ، كان يجب أن تطلق ثلاثة أسهم نارية في ميدان سالان داخل تولوز ، ايداناً باجتماع العناصر الملكية داخل المدينة وتوجههم إلى الأبواب المغلقة لفتحها. لكن الأسهم لم تظهر نيرانها في تلك الساعة كما وقع الاتفاق بين الطرفين . فتأجل الهجوم إلى نصف الليل . ومع ذلك فإن نيران الأسهم لم تظهر . وعند الثالثة صباحاً استطاع طفل في عامه الثاني عشر أن يتسلل خارج حصون المدينة ويخبر الجنرال روجيه ، وهو متطوع وطني قديم في منطقة الغارون العليا ، إنحاز إلى صفوف الملكيين من بعد ، بحقيقة الموقف قال له : " في الساعة المتفق عليها توجه عدد كبير من الأفراد إلى مواطن التجمع ، ولما لم يجدوا أمامهم القادة الذين تقرر أن يكونوا على رأس المتمردين ، فقد شاع الذعر في صفوفهم وعادوا من حيث أتوا ."

هكذا فشلت محاولة الانقضاء المفاجيء على تولوز. ومع ذلك فإن الملكيين لم يتراجعوا عن خططهم بل انسحبوا إلى التلال المسيطرة على المدينة وقرروا متابعة الاستعداد لمقاتلة الجمهوريين حول تولوز، ثم في المنطقة كلها لمدة ثلاثة أسابيع حتى تمت ابادتهم أو اعتقال بعض رجالهم بعد تفريق صفوفهم تبين سان غودان ومونتريجو من 20 إلى 25 أغسطس .

\*\*\*\*\*

ولكن لما كان هذا التمرد الملكي ؟

في البداية كان هناك نوعان من الأسباب : أسباب عامة مرتبطة باستراتيجية القوى الكبرى عام 1799م، وأسباب محلية تفسر في الوقت نفسه تشكل هذا التمرد وال فشل الذي انتهى إليه .

- الأسباب العامة : الحرب . فال حرب التي أعلنتها فرنسا على إنجلترا ، منذ أول فبراير 1793م لم تكن قد توقفت أبدا بعد. وذلك أن بريطانيا العظمى بحثت عن حلفاء جدد بعد تفرق محالفاتها في الأعوام 1795 ، 1796 ، 1797 م .

وكانت حصيلة محاولاتها الجديدة تكوين تحالف مؤلف من : إنجلترا ، تركيا ، روسيا / ملك نابولي . ولكي تكون لهذا التحالف فاعليته لم يكن ينقصه غير الولايات الالمانية ، ولا سيما الولايتان الكبيران منها وهما النمسا وبروسيا . لكن هذه الأخيرة اختارت الانسحاب بفضل الجهود التي بذلها سفير فرنسا في برلين السيد سسياس . أما النمسا فقد

انضمت في النهاية إلى هذا التحالف في شهر آذار " مارس " من عام 1799 م . وهذا هو ما كان يطلق عليه اسم التحالف الحادي عشر.

وقد حاول هذا التحالف أن يكون أكثر فعالية من التحالف السابق . فتوصل وزير الخارجية البريطاني اللورد غرنفيل إلى تعيين الغرض منه بعد مراسلات عديدة قام بها مع زملائه : النمساوي والروسي والتركي والمطالب بالعرش لويس الثامن عشر الذي كان يقيم في ميتو ، قرب ريغا ، أو عملائه في ألمانيا، وكذلك وزير خارجية نابولي . أما هذا الغرض فهو إعادة فرنسا إلى حدودها عام 1792 م ، وربما اعطاء الألزاس إلى النمسا ، وإعادة لويس الثامن عشر إلى العرش الفرنسي ، وإعادة النظام الفرنسي إلى سابق عهده أو على الأقل إلى الشكل الذي سبق أن حدده لويس السادس عشر وقدم برنامجه إلى المحافظات العامة في 23 يونيو من عام 1789 م ، والذي استأنف الدعوة إليه من بعد لويس الثامن عشر في اعلانه عنه في فارون في يوليو من عام 1795 م .

\*\*\*\*\*

ولتنفيذ هذا الغرض كان غرانفيل يرى وجوب قيام الجيوش المتحالفة بهجوم شامل على كل الجبهات مع تحريض أعداء النظام الجمهوري على التمرد داخل فرنسا في الأراضي المحتلة من قبل الفرنسيين . وهكذا يمكن أن يهاجم الجيش الروسي الفرنسيين في هولندا ، بعد اجتيازه لأرض بروسيا ( التي كانت بريطانيا لا تزال تأمل في محالفتها ) ويعقد اتصالا مع جيش بريطاني يتم انزاله على الشواطئ الأوروبية، كما يمكن أن تهاجم الجيوش النمساوية منطلقة من المانيا وسويسرا باتجاه نهر الرين ، ثم جيوش روسيه نمساوية تركية تعمل على طرد الفرنسيين من إيطاليا وسويسرا. وريباتيا ، والأراضي المنخفضة وفي داخل فرنسا نفسها وبخاصة في مناطق الجنوب ، والجنوب الغربي ، وبلاد الغاندي ، وبريتاني.

هذه الخطة الواسعة التي كانت ارهاصاً بما تحقق بعد ذلك عام 1814 م ، في حاجة إلى توقيت وتنسيق دقيقين في العمليات العسكرية . وكان من الواجب أن تبدأ العمليات وسط شهر آذار " مارس " 1799م في الوقت نفسه الذي تندلع فيه ثورات في إيطاليا وسويسرا وهولندا.

وكان غرانفيل يتوقع أن تصل الجيوش المتحالفة إلى الحدود الفرنسية عند مناطق ليل ، ليون ، نيس ، حوالي نهاية شهر تموز " يوليو " ، وحينئذ تبدأ الثورة في الداخل في الجنوب والغرب. وكانت الحكومة البريطانية قد أعدت ميزانيات مالية كبيرة لمساندة هذه الثورات : نصف مليون جنيه سترليني لثورة هولندا، ومثل ذلك لثورة سويسرا . كما وكلت مهمة توزيع هذه الأموال للعميلين البريطانيين ويكهام والكولونيل كراوفورد ، وكذلك مهمة التنسيق بين الثورات ، التي كان غرانفيل يعتمد عليها في تحقيق نجاحه.

## إخلاء المدينة الوردية من طبقتها الأرستقراطية لتصبح " حمراء "

لا بد لمثل هذه الخطة البالغة التعقيد أن تواجه عقبات كثيرة . أولاً : حياذ بروسيا : فالجيش الروسي لم يستطع اجتياز المانيا من الشمال ، فوجب نقله بسفن بريطانية ثم أنزله في هولندا ، وهذا لم يتم إلا في 27 أغسطس . الثورة التي أعدت من قبل الإنجليز والأورانيين في هولندا فقد سحقها جيش الجنرال برون وهي في المههد .

أما في إيطاليا ، فقد حدث العكس تماماً ، فقد هزمت القوات الفرنسية بقيادة شيرر من قبل الجيوش النمساوية والروسية عند منطقة " الأديج " فاضطر الفرنسيون للإنسحاب من سهل اليو كله . واصبح الجنوب والوسط في إيطاليا فريستين للثورات . في يونيو 1799 م لم يعد الفرنسيون يحتلون غير شواطئ ليفور ولا سيما جنوا التي تحولت إلى قلعة قوية راسخة . وعلى كل حال فان الحلفاء لم يحققوا أهدافهم في : ليل ، ستراسبورغ ، ليون ونيس .

فهل بقي للثورات المرتقبة داخل فرنسا أي مبرر ؟ وعلى كل حال فإن الأمر لم يصدر بتوقفها . وإذا فلماذا

وكيف حدثت الثورة في تولوز ؟

\*\*\*\*\*

الأسباب المحلية : كانت تولوز منذ 1792 م قد أصبحت مدينة " حمراء " فدمرت الأرستقراطية البرلمانية التي

كانت تسيطر عليها حين تم إعدام 53 عضو من أعضاء البرلمان المائة بالمقصلة ، واختار الباقون الهجرة ولا سيما إلى

أسبانيا وبعضهم اختار الاختباء .

ولما لم تكن في المدينة غير طبقة بوجوازية ضئيلة ، فقد انتقلت الإدارة إلى أيدي رجال البورجوازية الصغيرة والحرفيين أي إلى اليعقوبيين والصعاليك . ولما لم تكن في ظل حكم الإدارة غير بلديات معتدلة فقد انتخب اليعقوبيون بحيث أصبحت بهم تولوز موطناً يعقوبياً مائة في المائة .

## لكن المعركة كانت بيضاء

والجدير بالذكر أن الوضع لم يكن هونفسه في القرى والأرياف المحيطة بالمدينة ولا سيما تحت تأثير طبقة رجال الدين . مع العلم أن هذه الطبقة كانت قوية جداً في تولوز قبل الثورة ، حيث توجد تقريباً مائة كنيسة وعشرون ديراً . لقد رفض الكهان والدينيون مرغمين تحت تأثير جمعية روحية سرية نشيطة في تولوز تأدية قسم الولاء عام 1791 م بنسبة 60 % في المائة ثم بادر كثيرون من الباقين إلى التنكر لقسمهم . وتبعاً للقانون المعمول به كان يجب تسفير هؤلاء ، وانتقل عدد منهم إلى أسبانيا بالفعل، وتجموا بخاصة في فيش وكاتالونيا ، لكن أكثرهم اختبأ في تولوز ولا سيما في القرى والأرياف المجاورة.

\*\*\*\*\*

هؤلاء الممتنعون عن أداء يمين الولاء للثورة الفرنسية راحوا يحضون الفلاحين على الثورة . ويجب أن نلاحظ أيضاً ، أنه إذا كان الفلاحون في مقاطعة تولوز لم يرفضوا بحزم ، شأن سكان الفاندي ، الالتحاق بالخدمة العسكرية في صفوف الجمهورية ، فإنهم أبدوا حماسة معتدلة جداً في الانضمام إلى القوات المسلحة .

وهكذا ، فبينما استطاعت محافظة المورت أن تجند خلال ثلاثة أشهر خمس كتائب بدلاً من أربع كانت قد طولبت بتجنيدها فقد قضت تولوز ستة أشهر لاعداد كتيبة واحدة . حتى الآن كان ما حدث مجرد تطوع وحسب . وعندما صدر قانون جوردان - ديلبريل في 5 أيلول " سبتمبر " وتم الإقتراع عليه ، القاضي بالتجنيد الإجباري العام فان عدداً كبيراً من سكان محافظة تولوز قد امتنع عن الالتحاق بالقوات المسلحة .

\*\*\*\*\*

هكذا ظهر التعارض الحاسم بين المدينة والأرياف ، بين سكان المدينة والقرى ، بين المعتدلين الريفيين، واليعقوبيين المدنيين . والواقع أنّ هذا الوضع لم يكن خافياً على إدارة الحركات الملكية الموجودة في أوغسبرغ في ألمانيا، وهي التي أسست ما يسمى "وكالة السواب" التي كان من بين أبرز رجالها يريسي ، الجنرال الذي قاد تحركات الثورة المضادة في ليون عام 1793 م ، ثم النواب السابقون : داندرى وأمبير كولوما والجنرال ديلو الذي سبق أن نفي إلى غويانا بعد الانقلاب الذي قام به اليعقوبيون في 4 أيلول " سبتمبر " 1797 م ، لكنه نجا بنفسه وعاد إلى أوروبا .

كانت وكالة " السواب " قد خلقت جمعيات ذات طابع تعاوني اجتماعي لتنظيم حركات الملكيين في فرنسا ، وقد كلفت هذه المنظمات لأعداد ثورات صيف 1799 م .

## فاندي صغيرة تشكلت في المناطق المجاورة

من هذه الجمعيات كانت جمعية تولوز التي تشكلت في بداية عام 1797 م ، لكن نشاطها كان ضعيفاً، ثم ازداد هذا النشاط عام 1798 م بتأثير الأب لاكومب ، دوبون - كونستان - ودوبور الذين أسسوا جمعية مماثلة في بوردو .

الجمعية في تولوز كانت تجمع النبلاء في البداية ، ولا سيما البرلمانيين الذين لم يعدوا بالمقصلة من مثل الرئيس الأول في كامبون أو المستشارين فريسين ، مياجفيل رينال ... وقد حاولت تجنيد قوات من بين المتمردين على الخدمة العسكرية والهاربين . وهكذا تبين لها أن في وسعها تجنيد عدد من الرجال يصل إلى أربعين ألفاً على الورق . لكن الواقع أن كثيرين من المنتمين إليها لم يكونوا مخلصين تماماً أو كانوا سطحيين جداً . يضاف إلى ما سبق أنه لا يمكن تجميع هؤلاء الرجال دون أن تشعر بهم السلطات الحاكمة . فمنذ صيف 1798 م كتب مفوض حكومة الإدارة في محافظة غارون - العليا إلى الحكومة المركزية يقول : أن في مقاطعة تولوز عدداً من المبشرين العاملين في الجمعية . وأنهم يروجون الدعاية للنظام الملكي في القرى ، وأنهم يتسللون عبر جبال البيرينه ، ويجتازون الحدود بسهولة قرب لوتسون وقال داران ويتصلون بقدماء المهاجرين الذين يكثرون في تلك المناطق . هؤلاء المهاجرون كان يقودهم الكونت دوبولو ، ابن تولوزي برلماني وغني سابق . ويذكر أن الملكيين موجودون بكثرة في محلتين من غارون - العليا هما مورا وسان لي .

\*\*\*\*\*

وفي نهاية عام 1798 م وعند بداية عام 1799 م ، بدأت الوشائيات تتلاحق باتجاه الادارة المحلية لمحافظة الغارون - الأعلى ، ففي الخامس من مارس 1799 ، أي في الوقت الذي بدأت فيه العمليات العسكرية ضد

القوات الفرنسية في ألمانيا وإيطاليا ( وقد اغتيل المفوضون الفرنسيون راشداد ، في 28 أبريل ) كتب مفوضية حكومة المديرين في الغارون - الأعلى إلى وزير الشرطة يقول : في هذه المحافظة يوجد 15 ألف عضو في الجمعية الخيرية ومع كل منهم شارة تدل إلى انتسابه إليها . وهناك مؤسسات خيرية أخرى منتشرة في المحافظات المجاورة ولا سيما في منطقة الجير والبيرينه - الأدنى .

هذه المؤسسات كلفت من قبل منظمة " السواب " بتنظيم الثورة واعلانها في نهاية شهر أغسطس ، وبالتنسيق مع الثورات المماثلة التي ينتظر أن تتفجر في مناطق " البورديلي " والفاندي وبريتاني ، على أن يتم هذا كله في الوقت الذي تبلغ فيه قوات الحلفاء الحدود القديمة لفرنسا .

أما المؤسسة الخيرية الأكثر نشاطاً ، والأقل صبرا على ابتداء العمل ، فهي على التأكيد مؤسسة تولوز . لقد تم تحريض أعضائها ، فكثر حالات الشعب والاصطدام بين الملكيين والجمهوريين بصورة مطردة . ففي 6 أكتوبر " تشرين الأول " هاجم فريق من الملكيين في أيسسكان قرب تولوز فصيلا من رجال الدرك ، فقتل الرئيس ، وأصيب أربعة بجراح . وخلال شهر مايو 1799 م ورد أن أشجار الحرية في كاستاني قد قطعت . وقتل جمهوري في سانت غابيل .

وكتب مفوض الكانتون كاستاني إلى إدارة المحافظة ما يلي : " أنه لا يمكننا أن نتجاهل واقعة أن حركة فاندي صغيرة تتكون في المنطقة " ثم وجه مفوض المحافظة إلى وزير الشرطة مذكرة جاء فيها : " لقد قتل جمهوريون كثيرون ، كما أن عدداً أكبر منهم قد دمرت أو احترقت ممتلكاتهم ، وأن أشجار الحرية قد اقتلعت من جذورها في أكثر من أربعين قرية ، بالإضافة إلى أن المؤسسات الجمهورية قد أهملت أو تعرضت للإزدراء في كانتونات كثيرة .

والوضع هو نفسه في المحافظات المجاورة ، أريبيج ، جير ، لو ، وغارون .

## تجمع عشرة آلاف رجل لكن الأبواب بقيت مغلقة

وبينما كانت الأرياف موطناً لعصابات من المتمردين والهاربين المتأثرين بالدعاية الملكية على درجات متفاوتة ، بقيت مدينة تولوز يعقوبية ، لكنها كانت خالية من القوات المسلحة الموالية . ثكنتها العسكرية لم تكن تستوعب غير نصف سرية من كتيبة الفرسان الرابعة عشرة ( 34 رجل ) ، وغير بضعة مدفعيين ورجال الدرك . لكن القوة الأساسية كانت محصورة في الحرس الوطني.

المتمردون يتمتعون بتفوق كبير في العدد . وكان يقودهم جنرال متمرس هو روجيه . هذا الجنرال من مواليد سان - دومينيك ، شارك في حرب الاستقلال في الولايات المتحدة ثم تطوع عام 1792 م في كتيبة المتطوعين في منطقة الغارون - الأعلى . انتخب برتبة ليوتنان - كولونيل - قاتل الأسبان في جبال البيرينه . لكنه استقال عام 1796 والتحق بجماعة الملكيين الدستوريين " الكليشيان " . وقد ترشح للإنتخابات التشريعية باعتباره زعيماً لهذا الحزب في نيسان " ابريل " 1799 م . فانتصر عليه فيها مرشح يعقوبي . ومنذ ذلك الوقت ارتبط بالمؤسسة الخيرية .

غادر تولوز في 12 يوليو ونظم عصابات المتمردين في شرق المدينة حول قصر دوفيلال ( والد وزير المستقبل لدى لويس الثامن عشر وشارل العاشر ) ، وفي الغرب ، بين موفيزان وليل - آن - دون وليل جوردان ( التي كان لويس الثامن عشر فيها بلقب كونت ) . وهو نفسه الذي أقام قيادته العامة في سانت غابيل جنوب تولوز ، عند تخوم محافظة أرييج .

وهناك عمل على تنظيم المتمردين في كتائب وسرايا كما أوجد جيشاً صغيراً من الفرسان . هكذا تم تجنيد عشرة آلاف رجل . وفي 4 أغسطس أمر روجيه بتجميع قواته حول تولوز ، على أن تفتح أبواب المدينة من قبل الملكيين داخلها ، وأن تسلم إلى قواته ترسانة السلاح فيها . لكن هذا لم يتحقق له . هكذا فشلت خطة المفاجأة في احتلال تولوز .

ولكن لماذا بقيت أبواب تولوز مغلقة بأحكام في ليلة 5 - 6 أغسطس ؟ السبب هو السلطات التولوزية قد عرفت بأمر المؤامرة . ليس فقط أنها كانت على علم بتحركات الملكيين ، التي كانت تبرز في حالات الشعب خلال عام مضى ، بل كانت تعلم أيضاً أن الملكيين سيقومون بالهجوم على المدينة في ليلة 5 - 6 أغسطس .

ويبدو أن الأب مونغايار هو الذي خان المتمردين ، وكان يعمل جاسوساً مزدوجاً لدى الملكيين والجمهوريين . وربما تلقى مفوض حكومة المديرين ، معلوماً من أطراف أخرى ... وهكذا بادر هذا المفوض إلى مضاعفة عدد حراس الأبواب ، فلم يجرؤ المتمرّدون في الخارج على اقتحام الأبواب كما عجز من في الداخل من الملكيين على الاستيلاء عليها .

لكن روجيه لم يقلع عن محاولته . فقد أصدر أمره إلى رجاله باتخاذ مواقعهم فوق تلال بيش - دافيد ، التي تسيطر في الجنوب على مدينة تولوز . وكان يتوقع الحصول على نجدات تأتيه من محافظتي جير وأرييج فيستأنف الحملة على المدينة .

أما السلطات التولوزية فلم تبق ساكنة . فمنذ السادس من أغسطس شكلت لجنة دفاعية مؤلفة من اليعقوبيين ، كما أن هذه السلطات نقلت الأموال العامة إلى قصر البلدية ووضعتها تحت حراسة مشددة . ثم منعت التجول في المدينة بعد منتصف كل ليلة . أما لجنة الدفاع فقد وضعت لائحة بالمشبوهين وتم اعتقالهم في 7 أغسطس كرهائن .

ومن أجل تقوية الحماية العسكرية قررت اللجنة تشكيل جيش من الحرس الوطني المتحرك . ثم اختيار أفراده من أقوى الجمهوريين وأكثرهم تحمساً وأشدهم ولاءً لنظام الجمهورية.

هكذا رأت السلطات التولوزية أن في وسعها الاستناد إلى ثلاث كتائب أي ما يساوي 2700 جندي تقريباً ، وإلى سرب من الخيالة وسرية من المدفيعيين . وتقرر إعطاء كل زوجة لأي مجند في هذا الجيش مبلغ فرنك واحد يومياً وربع فرنك لكل طفل . ووضع الجنرال أوبوجوا على رأس هذه القوة، والذي لم يكذب يلتقط أنفاسه لأن المتمردين هبطوا في 7 أغسطس من التلال وهاجموا باب سالان الذي يواجه الطريق إلى ناربون . لكن الهجوم فشل وفي مسار اليوم نفسه تلقت حامية المدينة نجدات قادمة من معسكرات كاهور، مونتوبان وألي .

## منشورات سوفوروف في قرى من أرييح

وفي الثامن من أغسطس قام الجنرال أوبوجوا بالهجوم على رأس جنوده واحتل بيش - دافيد . لكن قواته التي كانت تفتقد التنسيق والتدريب لم تستطع منع المتمردين من الهبوط حتى الغارون ومحاذة النهر بإتجاه تولوز والتهديد بقطع خط التراجع أمامه. وتراجعت حامية تولوز نحو باب سان - ميشال في غير نظام . ولو أن الملكيين داخل تولوز كانوا مستعدين للنهوض والتحرك لكان وضع أوبوجوا شديد الخطورة. لكنهم وقد حرقوا من رؤسائهم الذين اعتقلوا بمثابة رهائن ، فانهم لم يتحركوا . وفي اليوم نفسه نزلت الهزيمة بمجموعة من الجمهوريين في لانتا . وفي مقابل ذلك لم يقدم الملكيون في مناطق متعددة على حمل السلاح ولم يحاولوا انجاد الجنرال روجيه كما كان يتوقع منهم.

وفي التاسع من أغسطس أعلن النفير العام في شوارع تولوز . ذلك أن أوبوجوا قرر استئناف الهجوم الذي بدأه أمس . لقد أراد أن يحرر المركز الرئيسي لغارون الأعلى من الخطر الذي يضغط ثقيلاً عليه.

لقد شكل رتلًا من الجنود بإتجاه بيش - دافيد . وتم طرد المتمردين الذين هبطوا إلى السهل ثم طوردوا بإتجاه الغارون . وفي هذه المرة قطعت عليهم الطريق إلى تولوز. ولم يبق أمامهم غير اجتياز النهر سباحة من الضفة إلى الضفة . وغرق الكثيرون منهم فقدرت خسائر الملكيين بما لا يقل عن 200 رجل تقريباً بينما لم تتكبد قوات أوبوجوا غير اصابة جنديين بجراح . ونجت تولوز لكن التمرد لم يقضي عليه.

وبقي تحت قيادة روجيه 6000 جندي تقريباً . فأصدر أمراً بالإنسحاب على امتداد نهر الغارون بإتجاه جبال اليبيرينه والحدود الأسبانية . وكان آنذاك لم يفقد الأمل بعد فالتمردون كانوا لا يزالون يسيطرون على محافظة جير باستثناء أوش . كما كانوا قد استولوا على لومبيز وأيل - دو - جوردان ، ويسيطرون بقوة على جنوب منطقة " لو " باستثناء مونتوبان ، القلعة الجمهورية الحصينة ، وعلى كل المنطقة الجبلية من محافظة أرييح نفسها والقرى المجاورة لبامبييه

. أما روجيه الواثق من خطة التمرد العامة على حكومة المديرين ، فقد كان يأمل في أن يسيطر الملكيون على بوردو ونانت : في الوقت الذي يستأنف فيه الحملة على تولوز.

كان من المقرر أن ينهض سكان بوردو في الخامس من أغسطس لكن الملكيين في ذلك اليوم لم يتم استعدادهم . وعندما علموا بتحرك روجيه نحو تولوز ، حاولوا التحرك بدورهم لكنهم لم يوفقوا إلى أكثر من القيام بتظاهرة فوضوية لم تلبث السلطات الرسمية حتى قضت عليها . فسقط خلال ذلك قتيل واحد وبضعة جرحى ، ورهائن تم اعتقالهم.

وفي محافظة لاند ، جرت محاولة للتمرد في داكس في السابع من أغسطس ، في بيرينه الأدنى وتردد هتاف " يعيش الملك " في ناي دغان . وفي منطقة " لو و غارون " توجهت مجموعات من الملكيين نحو أجان فتم تفريق أفرادها.

ومنذ العاشر من أغسطس انتزع الجمهوريون المبادرة في كل مكان . ففي جير قام جنرال آخر بجمع الحرس الوطني وبعض رجال القوات المسلحة واستعاد جيمون . وفي الغارون الأعلى جاءت قوات من تارن فطردت الملكيين من ريفيل وسانت فيليكس - لوراجي وقتلت نحو مائة من رجالهم.

وفي منطقة " الأود " أقدمت قوات من ناربون وكاركاسون فاستولت على القرى الي كانت قد رفعت الأعلام البيضاء ، بين كاستلنوداري وتولوز . وفي أرييج أعادت قوات جمهورية من فوا وباميه استيلاءها على القرى التي سبق أن اخرجت منها فعثرت على منشورات موقعة من قبل الجنرال الروسي سوفوروف الذي كان قد غزا سهل البو .

## كارثة مونتراجو (20 أغسطس 1799م)

وبعد الانتصار في بيش - دافيد انصرف أوبوجوا إلى إعادة الاتصال بين تولوز وأوش . حدث ذلك في 11 أغسطس بعد الاستيلاء على آيل - دو - جوردان . لكن هذه المحاولة كانت دامية . لقد تعرضت القرى القائمة بينهما للتخريب والدمار . ثمانون من السكان قتلوا في المعركة . وستون آخرون أعدموا بالرصاص . وفي آيل - دو - جوردان خسر المتمرّدون أكثر من 400 رجل . وفي الثاني عشر من أغسطس تمكن رجال أوبوجوا من عقد الإتصال في جيمون مع القوات القادمة من أوش بعد أن قتلوا مئات كثيرة من الفلاحين.

وبعد أن اطمان الجنرال أوبوجوا إلى مؤخرته توجه برجاله نحو مورا مروراً بساماتان . وفي 13 أغسطس أصبح أوبوجوا أمام المدينة التي لجأ إليها المتمرّدون . لكن هذا الجنرال وجد أنه لا يملك من القوة ما يكفي لها حجتهم بصورة مباشرة . فطلب النجدة التي جاءت من تولوز وباميه . وانسحب الملكيون من مورا حتى لا يقعوا في الحصار في 14 أغسطس.

بعد هذه الهزائم المتكررة وقع الخلاف بين المتمردين . كان الكونت دوبولو على خلاف دائم مع روجيه . وقد أصر هذا الأخير على اصدار الأمر بالتراجع نحو جبال البيرينه والحدود الأسبانية . وفي أثناء ذلك استولى الملكيون على مدينة كاربون الصغيرة وقتلوا فيها 68 رجلاً جمهوريان واعتقلوا 200 منهم ، لكنهم لم يستطيعوا البقاء فيها .

وتزايد ضغط الجمهوريين عليهم فأكثر فأكثر . في 12 أغسطس كان الجنرال كونم قد تولى القيادة على الفرقة

العسكرية العاشرة في المنطقة كلها.

وقد كان هذا الجنرال المولود في أود رقيباً في سلاح المشاة في النظام السياسي القديم . وفي عام 1793م قاتل الأسبانيين في جبال البيرينه الشرقية ، ثم عمل تحت قيادة بونايرت في ايطاليا . ثم عاد إلى بيرينيان برتبة لواء في يوليو 1799 م . وبفضل خبرته بالرجال والأرض أعاد النظام إلى القوات الجمهورية وقام بعملية هجومية ضد المتمردين الذين كانوا يستولون على سانت - غودانز ومونتراجو ، أي عند أطراف فال - داران ، الأسبانية والمحايدة .

نظم الجنرال كونم قواته في ثلاثة أرتال . في الشرق رتل بقيادة فيسوز انطلق في طريق تولوز . وانتزع سانت - غودانز بسهولة . وفي الجنوب رتل جاء من تارب والبيرينه الأعلى ، واجتاز وادي نست وأحاط بمونتراجو . أما كونم نفسه فقد هاجم هذه المدينة من الشمال بالقسم الأكبر من قواته . وهكذا أصبح المتمردون محاصرين عملياً . وبدأت المعركة في 20 أغسطس . تكبد الملكيون الذين يتألفون من خمسة آلاف مقاتل تقريباً ، خسارة ما بين ألف وألفي رجل ، وأكثر من ألف أسير . أما الذين نجوا من المذبحة الكارثة فقد حاولوا التوجه إلى أسبانيا . لكن تقدير عدد الناجين لم يكن ممكناً

## ثوب راقصة أصبح علماً أبيض

كان الجيش الملكي قد دمر تماماً ، ولم يبق منه غير عصابت منتقلة بين القرى في الوقت الذي بقي فيه الملكيون مسيطرين على بعد البلديات .

واستمر الجنرال كونم في ممارسته لعمليات التصفية . فقضي في البداية على العصابت الكبرى بين 20 و25 أغسطس ، ولا سيما في محافظة الجير وشمال شرق الغارون الأعلى . وقد حدث حادث هزلي - مأساوي في منطقة لوشون التي اتخذت منذ عام 1789 م موقفاً معارضاً للثورة خلاصته : أن راقصة أوبرا مشهورة في باريس ، كلوتيلد ماشغلوري ، كانت حينذاك تستشفى فيها: قدمت ثوباً للمتمردين ليجعلوا منه راية بيضاء ، مما لم يحل دون أن يستعيد الجمهوريون سلطانهم على لوشون وأن يقوموا بحراسة الحدود الأسبانية .

طالب الجنرال كونم حكومة مدريد بتسليم من لجأ إليها من المتمردين . كما كان يطالب بإعادة أربعة وأربعين زعيماً منهم بالإسم ، بينهم روجيه وبولو . وكانت مطالبته دون جدوى.

روجيه توجه إلى البرتغال ثم إلى بريطانيا وفي عام 1802 عاد إلى فرنسا . فأرغم على الإقامة في تولوز برقابة الشرطة حتى عام 1814 م . وهنا منحه لويس الثامن عشر صليب القديس لويس ، وعينه عام 1815م قائداً لمنطقة تارن - و - غارون . وفي حركة الإصلاح عام 1830م توفي قريباً من تولوز في سانت - أورنز عام 1831 م

أما فيما يتعلق ببولو ، فيبدو أنه عاد سراً إلى محافظة أرييج عام 1800 م . واتخذ فيها لقب " القائد الأعلى للجيش الملكي " وعين عدداً من المفوضين ومساعدتي مفوضين حاولوا عبثاً حتى عام 1814م أن يعيدوا الحياة إلى الحركة الملكية.

وبالقضاء على التمرد تم القضاء القبض على ثلاثمائة متمرّد أو مشبوه ممن كانوا محتبئين . لكن سياسة القمع التي اتخذت بعد ذلك لم تكن شديدة. تلك التي بدأت بإعلان حالة الحصار في كل المناطق المتمردة . ثم أطلق سراح عدد غير قليل من ستة آلاف سجين قبض عليهم في تولوز والمناطق المجاورة لها . وتم تسريحهم دون محاكمة بأمر صادر عن حكومة المديرين . والواقع أن هذه الحكومة كانت تتخوف من اجتياح اليعقوبيين لها الذين كانوا يتجمعون منذ تم إغلاق ناديهم الباريسي في 13 أغسطس.

لقد أمر المدير سيباس ووزير الشرطة فوشيه بإطلاق سراح كل المزارعين الذين شاركوا في حركة التمرد مرغمين . هكذا أخرج من السجون أربعة آلاف رجل ، بينهم ملاكون كبار من أمثال السيد فيلال . أما الباقون وكانوا يعدون ألفي رجل فقد أحيلوا إلى مجلسين حربيين عملا في تولوز. والمجلسان هذان حاكما المحليين اليهما بصورة بطيئة . أما الأحكام التي صدرت عنهما قبل وقوع انقلاب 18 برومير فهي كالتالي : 11 حكماً بالإعدام ثم تنفيذها . وحكام بالتسفير والنفي وتسعة أحكام بالسجن وعشرة أحكام براءة.

أما الذين احتفظ بهم موقوفين منذ 18 برومير فقد كانوا من الحرفيين الريفيين ، ولا الناجون منهم ، أو صغار التجار في القرى ، وأصحاب الحانات وتجار النبيذ . ثم بضعة أجناب ، إيطاليين وأسبان.

ومما يجب ملاحظته ، أن عدداً قليلاً من الكهنة قد تم توقيفهم رغم أن السلطات الرسمية اعتبرت الكهان العصاة مسؤولين عن التمرد وأن كثيرين منهم قد اشتركوا في الحز على التمرد .. واحد منهم فقط جرت محاكمته وصدر الحكم بأعدامه ثم نفذ فيه الحكم في 27 أكتوبر.

أقل من 200 قتيل في 1793 م

و 4000 قتيل تقريباً في 1799 م

وفي مقابل ذلك أنضم إلى الجيوش الجمهورية عدد من الكهان . والواقع أن التمرد في تولوز لم يكن ذا طابع ديني في جوهره. وكل السجناء أطلق سراحهم شيئاً فشيئاً بعد 18 برومير.

ولم يبق من تمرد العام السابع في منطقة تولوز غير شيء واحد هو أن ضحايا الرعب فيها كانوا أكثر كثيراً من الضحايا في العام الثاني للثورة . فإذا أحصينا عدد الذين أعدموا في العام الثاني، في المحافظات السبعة التي تعرضت للتمرد وجدنا أنهم يبلغون 112 رجل ، يضاف إليهم 53 برلمانياً أعدموا في باريس . وعلى العكس من ذلك ففي العام السابع ارتفع العدد إلى 4000 قتيل بين من سقطوا في المعارك أو تم اغراقهم أو اطلاق الرصاص عليهم في الغارون بين ملكيين وجمهوريين .

ومع ذلك فقد نسي تمرد العام السابع . لماذا ؟ الثابت أن ذكراه قد ضاعت في ذاكرة الرأي العام بسبب انقلاب

برومير الذي ظهر فيه بونابرت ، مع ما رافق ظهوره من سياسة المصالحة بين الفرنسيين والتوقيع على اتفاقية " الكونكوردا " التي وضعت نهاية للحرب الدينية .

لقد فشل التمرد أولاً ، بسبب افتقاد لحظة التنسيق مع التمرد الذي تم أعداده في بوردو وبريتاني . والثورة في تولوز لم يكن قد تم الاستعداد الكافي لها . كما افتقد التنسيق أيضا مع عمليات الحلفاء في هولندا وسويسرا وإيطاليا : لقد قضى على الهجوم في هذه التخوم بين أغسطس وسبتمبر . والخلافات في تولوز وما حولها بين بولو وروجيه أسهمت في تحقيق الفشل . كما أن السياسة التكتيكية وهي سياسة " الحرب الكبيرة " التي نفذت في الغاندي وكالايير قد قادت إلى الهزيمة . ولو أن المتمردين قد خططوا للتمرد على طريقة حرب الأنصار لكانوا دون ريب أكثر احراجاً وازعاجاً للجمهوريين . لكن هل كان في وسع جنرال حقيقي مثل روجيه أن يفكر في هذا الأمر ؟ وهل كان في وسع الأرض المكشوفة لبلاد الغارون أن تساعد على النجاح ؟ وأخيراً فإن الهجوم على تولوز في 1799م كان يعني ركوب المركب الصعب . ذلك لأن تولوز من بين كل مدن المنطقة كانت الأكثر يعقوبين والأكثر عداء للملكية ، مما جعلها المدينة الأكثر مقاومة للملكيين .

هذا وقد أدرك المستشارون التشريعيون في حكومة المديرين أبعاد الخطر الذي كان يتعرض له نظام الحكم . لذلك أصدروا في 2 أيلول " سبتمبر " قانونا يعلن الإعتراف الوطني بتحميل التصرفات الصادرة عن السلطات المدنية والعسكرية والمواطنين الذين تعاونوا على اطفاء نار الفتنة الملكية بفضل حماسهم وصدق ولائهم " كما سجلت أسماء الذين سقطوا في المعارك وعلقت في قصور المحافظات تكريماً لهم . وهل تم ذلك حقاً؟ وعلى كل حال فقد بقوا اليوم تقريباً بين الرجال المجهولين في البلاد.